٦- إنفلونزا قاتلة

■ الخديوي توفيق

" إن ذهابكم إلى كفر الدوار مستصحبًا العساكر وإخلاء ثغر الإسكندرية من غير أن يصدر لكم أمر بذلك وتوقيف حركة السكة الحديد وقطع جميع المخابرات التلغرافية عنا ومنع ورود البوستة إلينا ومنع حضور المهاجرين إلى وطنهم بالإسكندرية، واستمراركم في التجهيزات الحربية، وارتكابكم عدم الحضور بطرفنا بعد صدور أمرنا بطلبكم، كل ذلك يوجب عزلكم، فقد عزلناكم من نظارة الجهادية والبحرية وأصدرنا أمرنا هذا لكم بما ذكر ليكون معلومًا"

قصر حلوان

يناير ١٨٩٢م

درجة حرارته متقلبة لا اتزان لها، بين معدلها الطبيعي وبين الأربعين، عيناه ذابلتان، جسده مكفهر، سعال شديد، ألم يعتصر روحه عندما يتنفس، متكئ في سريره على ذراعي خادميه، ملامحه تميل للصفرة، لم يصلّ الجمعة كعادته بمسجد حلوان، تداهمه الإنفلونزا، خرج ليستنشق الهواء فرجع بوعكة تزج به في سجن اللا حياة، لم تقابله هذه الانتكاسة منذ أن سمع بهذه الهوجة التي ترأسها عرابي، لم يكن ساعتها مصدقا بأن عرابي الذي أفاض عليه بنعمته يلوي ذراعه، لم يكن مستوعبًا، خاطب نفسه لساعات متسائلا.. كيف يتجرأ هذا الجندي الذي أتى به رفاعة الطهطاوي وأدخله حشية الجند، وأنعمت عليه بالنياشين وحتى الرتب، كيف يحاصر قصري بألفين وخمسمائة من الجنود؟! كيف استطاع أصلا أن يجمع هؤلاء؟! وكيف انضمت هذه الحشود من الفلاحين له؟!

منذ هذه اللحظة وهو لا يستعين بأحد من المصريين، صحيح أنه عفا عنهم وخفف عنهم عقوبة الإعدام ونفى عرابي وأصدقاءه ولكنه لم يعد يستعين بهم، فسابقا عزل عرابي.

لم يكن مصدقا أن هناك للشعب صوتًا، يستطيع أن يتكلم، لم يعره الشعب أي اهتمام، وضربوا بقراره عرض البحر، هو من أوصلهم لهذه المرحلة، اجتمعت الجمعية العمومية كان عددهم أربعمائة ونيف وقرروا ضرب قرارات هذا الحاكم عبر الحائط..

هو لا يعترف أبدًا بالدستور، ولا يأبه بالدساتير؛ يريد أن يكون مطلق اليد، حاكمًا بمعنى الديكتاتور، لا يستمع إلى أحد فقط رياض باشا رئيس النظار الذي طالما أعانه وأيده وحاول أن يجعله الحاكم والملك والسلطان الأوحد الذي لا ترد له كلمة.

القنسلتو الطبي في قطاره المخصوص من المحروسة إلى حلوان، هم في حيرة كبيرة لم يروا هذا الداء من قبل، كيف تكون ضربة هواء وإنفلونزا صغيرة تفتك بهذا الأمير، لابد أن هناك سببًا ما، لابد أن تكون علته هذه من سبب آخر، الطبيب كومانوس والطبيب هيس يستغربان الأمر، هالهما تغير وجهه الشديد، ملامحه التي توشك على الفناء،

بدآ في التشخيص، سألا الطبيب المرافق أجابهما بأنه أعطاه جرعة من المورفين، كانت آلامه شديدة لم أتحمل الأمر، أخذا يتشاوران؛ لابد أن الكلى سوف تتدمر إن لم نقم بحقنه بالكافيين، يشير أحدهم بالحجامة، لكن لا يستطيع، ألم شديد يعتصر أضعف نقطة في جسد الرجل، البروستاتا أعلنت حربها عليه وخيانته، لا يستطيع التحمل، فاضت روحه وصعدت إلى عتبات السماء.

لا يعلم طبيبه من أين أتى هذا اللورد كرومر بهذه الشائعات اللئيمة عن وفاة ولي نعمه وسيده، فهو من رافقه أيامه الأخيرة، لكن هذه الحياة يموت خديوي ويأتي خديوي جديد، هذه هي المحروسة فهي دائما ما تستعد لاستقبال الجديد وتوديع القديم.

الحزن يجتاح القصر، الكل في حزن وألم شديد، كل رجال الباشا يتجمعون في عابدين ينتظرون الجنازة والأبناء والزوجة يختال عليهم وقع تلك الطلقات التي تدوي في البلاد، متقطعة ولكنها مدوية هذه هي عادات الموت في الأسرة العلوية، البلاد من شرقها لغربها يضنيها سماع تلك الصيحات ويا لها من صيحات،

يطير الخبر إلى الأمير عباس بفيينا بلد السحر الذي كان يدرس بها العلوم التي حرم الراقد مفارق المنية الفرصة للدراسة بها مثل بقية الأمراء.

الإسكندرية وثغرها منكسة الأعلام، سفاراتها ومحلاتها التجارية مغلقة، وحتى البورصات والبنوك وكل دوائر الحكومة في ثبات وكأن التاريخ توقف والحياة لن تستمر، يبدو للعيان أن المدينة حزينة، ولكن تلك المدينة تكره هذا الميت، لا تنسى له تلك المذبحة التي أرشقهم بها وفعلها هو وحاميته وحلفاؤه، يتذكرون له تلك المحاكم المختلطة التي دمم بها كاهل العبيد وعلا بها شأن قاطني تلك القارة العجوز أوروبا.

الكل مجتمع في سراي عابدين، الأمراء والنظار وحتى الأجانب والقناصل كلٌ يترقب دوره كي يؤدي فريضة العزاء، كلهم مدهوشون من هذا الموت المفاجئ، لا يعرفون سوى المصالح، ومصالحهم هنا كانت قوية وعتيدة، الكل منتظر نعش الفقيد، وتعلن الجرائد الحداد

"فكنت لنشائهم أبا ولكهلهم أخا ولذي التقويس والكبرة ابنها

فلتبك عليك البلاد يا توفيقها عدد أنعامك وعدلك..
ولتنتحب عليك قلوب أبنائها بمقدار ما خزنت فيها من حبك وفضلك[1]."

الجمعة الساعة السابعة

الأورطة المصرية وقوات الاحتلال في باب اللوق ينتظرون النعش القادم من حلوان، والمعزون يملئون المكان، ليبدأ أحمد باشا مختار ويرافقه رياض باشا صديقه القديم في مشهد الوداع، فيجتازون الشيخ ريحان ثم تنضم إليهم حشود سراي عابدين ويمرون بالحسين، فيصلون عليه ويكرمونه بالدفن بالعفيفي، فتنطوي السكرة وتروح الفكرة وتطوى الأرض حاكمها وتصك العملة باسم عباس الثاني وتعلو المراسيم وتخطب المساجد ويحكم التاريخ على من حكم ليبقى مدونًا في التاريخ أن الخديوي توفيق بن الخديوي إسماعيل قد مات وذهب عصره.

❊ ❊ ❊

[1] جريدة الأهرام، العدد الصادر ٨ يناير

■ ضريح الخديوي محمد توفيق